خارج الموعد

«سرديّة»

جمعة الرّفاعي

اسم الكتاب: خارج الموعد

تأليف: جمعة الرّفاعي

الطّبعة الأولى: ٢٠١٥

صدر عن:

القدس

009722340035

info@aljundi.biz

الغلاف والمونتاج والإخراج:

محمد فالح مرشد. about.me/Almoltzim

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو إعادة تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو استنساخه بأيّ شكل دون إذن خطي من الناشر والمؤلف.

All rights are reserved, no part of this book may be produced, or transmitted in any means, electronic or machanical, including photocopying, recording or by any information storage, without the prior permission in writing of the publisher and the author.

الإهداء:

،

،

،

إليهـــم

هذا العالم ليس غريباً بالقدر
الذي لم نكن نتوقّعه

حان الوقت الممتلئ صخباً والمسكون ضجيجا ونقيضا؛ كي ألبي طلب الإرتباك الذي يباغتني دائماً، بعد أن كنت في حالة تأجيل مستمرة على مدى أكثر من خمسة عشر عاما، ففي كل مرة لم أكتب ما يعتريني كنت أصاب بالخيبة والخيانة للقلم، ولذاك الجمهور الذي ينتظر شيئا ليقرأه، وإن لم يكن لذلك، فمن أجلي أنا حتى أقرأني على طريقتي بعد انتهائي من طرح وجهة ذاتي على البياض الذي ينتظر.

حان الوقت بعد أن كان الإرتباك طفلا تنقصه المصائب وكبر على وحش اللذة والألم، وربما أيضا الفرح المعاكس للنقيض والمتحول دوما إلى ضوء فجر في الشتاء، إنه الصراع القاتل بين رغبتنا في الوصول وحقيقة أن ذلك مستحيل، أو هو المنطقة الفاصلة بين الضرب على الصدر والتراجع الداخلي، إنها الفواصل المتداخلة، فعادة ما يكون التكوّن بين أن تكون حرّا في فضاء الممكن، وأسيرا في ثنيات التفاصيل هو الصورة المعكوسة عن التسمر في الآن.

أعرف أنني في هذه اللحظة وربما في لحظات قادمة سأقول أشياء خارج سيطرة الحواس، وأن أي كلمة يمكن كتابتها هي عن حالة غير مفهومة شعرت بها، لكنني أعي ما أنا فيه، ولكن هي الكتابة عن هؤلاء السكان أو البوح الذي أريد أن أقوله عن هذه البؤر الغامضة، والتي حاولت دائماً أن أقوم بتفسيرها ولم أستطع.

في أحد الأيام، أو للدقة في عصر أحد الأيام من خريف 2002 والشمس مشرقة تريد أن تشي بحدوث شيء ما، جلست بجانب آلة تسجيل وأغمضت عينيَّ، وانطلقت بخيالي إلى عوالم الحقائق التي وقعت نتيجة أسباب غير واضحة المعالم، وبدأت المحاولة -بعد احترافها- في كيفية تقبل هذه الأحداث حول من لمسها وشعر بها، وأقمت حوارات مع كائنات لا تشبه بعضها ولا حتى ذاتها، وبدأت أنطق أمام آلة التسجيل لساعة كاملة، هكذا اتضح لي بعد أن كنت أريد فقط خمس أو ست دقائق -إن سمح الوقت- ليس هذا هو المهم،

فبعد أن أنهيت، أعدت الشريط كاملا، وكم كنت سيء الحظ لأن الشريط كان مقطوعا، فحاولت -كما جرت العادة- استعادة ما قلته معتمدا على الذاكرة إلا أنني لم أستطع، أدركت وقتها أنني مصاب، مصاب وفقط، وأن شيئا ما ينزف لا أعرف ما هو بالضبط، إنه يتعلق بحالة الرفض الدائم والملازم بجدوى أي خطوة أفكر القيام بها، وإلا كيف أفسّر عبارة أو عبارات كتبتها وعمري لا يتجاوز الرابعة عشرة.

«حين التفتح يصبح روضة للهذيان

تتجاذب الكلمات في قيعان الجمل

لتعود محمَّلةً بعبق الليل المنبوذ المترنح على شرفات الحزن القمريّ

تعود الروضة بخمائلها تتطاير مع أنفاس الورد الضائع في أغوار الأذن اليمنى للبطين الأيسر»

بماذا كنت أفكر وقت كتابتها سوى أن أكون مسكونا بحمَّى أن أصنع شيئا، فحتى تكون شيئا يجب أن تخلق شيئا -إنه قلق المحيط- فهل كنت حينها أخلق نفسي على طريقتي؟ كل الاحتمالات واردة ما عدا أن أكون مدركا لما كنت أفعل وقتها، هذا ما أستطيع أن أقوله الآن بعد أن صدمتني الحياة بحواجز لم أتوقع وقوعها، فبتُّ أتوقع كل شيء.

لماذا نجد أنفسنا في بعض الأوقات من وعينا نعود للماضي؟ نلتمس منه ملاذا لأرقنا الذي يكبلنا بالرحيل إلى الضباب؛ ليحمينا من برد الأبد وصقيع الضجيج، هل هو رد فعل على الحياة عندما يصبح إدراكها محنة ومعرفتها مأساة؟ أستطيع القول إذن أنه عندما تكون في التجربة وتتحدث عنها وكأنك خرجت منها، فهذا يعني أنك تعرف ما أنت فيه، ويعني أن الحياة من البداهة بحيث لا يصعب على المرء أن يشكِّلها في مخيلته بالطريقة التي يمكن أن تؤول إليه بعد فترة وجيزة، وبهذا تصبح اللحظات

القادمة عند الوصول إليها تبدو وكأنك عشتها منذ دهر، بل إنك تندهش من أن ما حولك يتفاعل معها، وكأنها لحظات مستجدة تخفي في طياتها الكثير من الغرابة، هنا بالضبط تكون حرا، ويبدأ تيار النبوءة بالتمركز على عذابات اليوم واجتراح القادم بحتمية ما مضى، وتبدأ حرب المعادلات العكسية والتي غالبا لن يكون فيها منتصر، وهنا ينكشف الزمان والمكان، ويصبحان بلا سلطة فعلية بعد أن كانا همّا ثقيلا وعبئا على أكتافنا، وتتحرر الحقيقة من كل من يدعي امتلاكها ومعرفتها وصياغتها، وندخل في عصر التشكيل الجديد، حيث كل شيء لا يحتاج إلى تبرير أو برهان أو دعائم لطرحه على أنه أفضل الموجود، نعرف أن ذلك غير مدرك الآن، وأقول الآن لأن الكثير منا لا يزال تحت رحمة السلطة وتوجيهات الانحراف.

التجارب تصنعها العقول، والخبرات بها لا يصنعها الاعتبار وإنما الجدل في تفكير صناعتها مرة أخرى، أهي التجربة إذن التي تمنحك الحكمة، بحيث لا

نستطيع الحكم على صدق الكلمة وعمقها الإنساني ما لم تجّرب هي أيضا، التجربة التي تعيد الإنسان إلى كينونته، ويبحث عنها في جدلية البقاء، التجربة التي تجعلنا قادرين على استكشاف كُنْه واقعنا وحياتنا وتجردها من مظاهر التزويق وكل «الكليشهات»، وتعريه من كل ما علق به من لوثات ليظهر على حقيقته، التجربة وخصوصا القاسية التي ترتبط بالهدف النبيل وحدها التي تبرهن على صدق الكلمة وحقيقة وجعنا؛ لارتباطها بالجانب الدرامي من حياتنا، فنوظف كل طاقتنا وهشاشتنا لنقول:

ها نحن أمامكم!

أهي الحاجة إلى معرفة ما ينقصنا حتى نعيد ترميم اكتمالنا المنشود بمعرفتنا المسبقة أن ذلك لن يكتمل؟ لأن العمر أمامنا لا يسمح بذلك؟

كم من الناس اختصروا حياتهم بدمهم، وتركوه يسيل

ليكمل الفكرة اعتقادا منهم أن هناك من سيفهمها، وكم خذلناهم حين رأينا دمهم باللون الأصفر أو أي لون آخر سوى أن يكون أحمر، أو في لحظات أخرى لم نستوعب حياتهم -مثلهم- ووقفنا حائرين أعواما طويلة وربما قرونًا ونحن نتأمل لون دمهم الحقيقي، فتلاشت حقيقتهم كما تلاشى الكثير غيرها، وبدأنا من جديد، كأن ذلك وليد اللحظة، ويقام الاحتفال احتفاءً بالمناسبة.

سلام عليك يا دمهم، سلام عليك يا هوياتهم التي لم تتقيَّد بالجغرافيا، فلم تكن دفاعا عن الذات أو وعيا لها، إنها باختصار شديد، موت الطيور وثقافة الحدائق.

***

في أوقات من عمرنا نحتاج إلى أجزائنا وأشباهنا ونقيضنا لنكمل بعضنا ونفهم هذا الاكتمال، مع أن ذلك ليس ضروريا، وربما هذا أحد الأسباب التي تدفعنا كي نجعل أنثى من سكان السطور لنتخلص تماما -مثلها- عندما يبدأ قلبها وعقلها بالنزيف؛ فيحال الرجل زائرا على هذا السكن.

قالت: صباح الخير!

ياه... لكثرة ما رددتها صباح الخير هذه في معتقلي في بئر السبع، بعد أن كنت أصحو من النوم أذهب مباشرة إلى النافذة ذات الشبك المحتوي على 145 مربعا صغيرا، وخلف النافذة لوح صفيح على طولها يحجب الرؤية وأرفع يديَّ كالصليب قائلاً:

صباح الخير أيها العالم الملوّث، وكان الرمل هو المجيب الوحيد، حتى قال أحد السكان: أنت تذكرني بكاريكاتور للفنان ناجي العلي، حيث أيام الحرب في

بيروت، رسمٌ لفتاة في غرفتها فجرا بجانب النافذة وتستفهم المدينة والنجوم والقمر الذي لم يكتمل بعد، وشعرها المنسدل بكسل قائلة:

صباح الخير يا بيروت.

كان ذلك يحدث والطائرات تطحن كل لبنان في الحرب السادسة – أكان ذلك مصادفة؟
أجبتها وكل ما ضربني باديا: صباح الخير، أراك على غير عادتك.

قالت: هذا يعني أنني جئت كما كنت تتوقع.

قلت: أتوقع! أنت تعرفين رأيي، لكثرة ما عودتني على المفاجأة صرت أراها فيك شيئا عاديّا.

قالت: ما هو غير العادي إذن؟ وبسمة مستترة في عينيها تخفي الرغبة الجامحة للمعرفة.

قلت: أنك لم تفاجئيني.

قالت: ما هذا الجواب المفاجئ؟

قلت: دعينا من هذا الحديث، هل بدأت بقراءة الكتاب؟

قالت: أنهيته، ليلة أمس.

سألت: بهذه السرعة؟

قالت: عدد صفحاته أل500، استفزني، أيقظ التحدي في داخلي وأوقد التوحش لإنهائه، وقد خلصت بعد الانتهاء منه أن كثرة القراءة تزيدك جهلا وكم الناس أغبياء، فتبدأ في التفكير في جدوى القراءة والكتابة إن كانت ستصل بك إلى تلك النتيجة.

قلت: صدّقيني، إن كتابة جملة أو فكرة أو نصّا مهما

كان نوعه يجب، أو هكذا أعتقد، أن يحتوي على حسّ فلسفي أو إنساني أو حسّ يتحدث عن عدم إحساسنا بما نواجهه ونحسّه... وأن من قال إن كل ما كتب يتحدث عن الحياة والموت كان يشعر بهذين الضدين، وأن من كتب عن الجنس أو الحب أو الأدب أو الدين كان ذلك يشكل له إحساسا من نوع ما، وقليلا ما قرأت شيئًا يتحدث عن عدم إحساسنا، عن موتنا الفلسفي وعن وجعنا بأننا فقدنا إحساسنا.

إن كل ما كتب وما يكتب وما لم يكتب وما سيكتب كان قد سبق وجود الأشياء على كتابته، وفقط دورنا يقتصر على اكتشافه أو تشكيله أو تطويره أو حذفه، لنعيد النصوص إلى غموضها الحقيقي، ونعيد الأشياء إلى حالتها التي كان يجب أن تكون عليها، لأن ظهورها أكبر دليل على أنها لا تستحق أن نعصر عقولنا من أجلها، إن الذي يستحق هذا الإرهاق هي الأفكار التي تشكلت بعد اكتشافها أو التي لم يكتشفها أحد بعد حتى نعيدها إلى حالة الغموض – هكذا يبقى دورنا مستمرّا.

قالت: ربما لهذا السبب أنت غير واضح فيما تكتب، إنه أشبه بالفن السريالي.

قلت: وهل هذا الأخير غير واضح؟

قالت: بلى، إنه واضح أنه يريد شيئا، ربما كان ذلك نتيجة سرساب يصيب الفنان يحثه دائما على البحث عن النقاء، كالروائي الذي يكتب كما يرى العالم من بعيد والذي يحب دائما العيش فيه.

قلت: وهل هذا ممكن؟

قالت: كما قلت أنت، إنه الصّراع القاتل بين رغبتنا في الوصول وحقيقة أن ذلك مستحيل.

***

هكذا دائما عند مصادفتنا من يشاركونا الفلك ويختارون مدارا آخر، نتقاتل في شبه اتفاقنا، فبالنسبة لي، واضح مع نفسي وغير واضح معها، وبالنسبة لها فأنا واضح في علاقتي بها ومريض ذاتيّا، وكل الذي جرى بيني وبينها كان يقف على هذه القاعدة، كلانا يعرف في هذا الصباح أنه سيكون أفضل شخص في هذا العالم لو أنه نهض ولم يجد أحدا تحت الشمس، وطالما هناك آخر سيبقى فيك شيء من قبح وأشياء غير مرضيّ عنها.

فترتان من ساعات اليوم كانتا تسمحان لمثل هذا النوع من الحديث معها، صباحا مع بدايات الضوء ومساء في لحظات ما بعد المغيب أو خلاله، وعندما كان يحدث في أوقات ما بين تينك الفترتين غالبا ما كان الحديث يأخذ طابعا اجتماعيا-إن سكتت لحظات الصمت الطويل- قبل البدء في برنامج اليوم وبعد الفراغ منه، بشرط أن يخلو اللقاء من التحضير المسبق والتخطيط الذي يقتل نصف ما يمكن أن نفعله إذا ما تقابلنا-

هكذا أعرنا الرؤية للريح، للصدفة، للقدر، لا فرق، فالقدر يحدث لك دون تخطيط أو تدخل منك كما هي الصدفة، كان إيماننا عاليا عاليا، والفرق الوحيد بينهما هو أن الأمور التي تفجعنا نسميها قدرا، والأمور التي تسعدنا نسميها صدفة وكأن صراعنا ومشكلتنا مع الاسم والمصطلح.

كان اللقاء بها في هذه الأجواء منبعا لازدياد الشوق، وأن هناك شيئا جميلا ومؤلما ينتظرنا، فيعطينا دفعة من النشاط، وكانت بغيابها تسمح -كما أنا معها- لعالم آخر أن نعيش فيه بعيدٍ عن الذي جمعنا يوما، كنا نعرف أن ذلك الغياب المتقطع أصبح من ضروريات استمرارنا في علاقة ناجحة، لا تعرف الفشل وإنما المستحيل في عدم نجاحها، كنت أشعر -وهي كما قالت- أن هذه المسافات القليلة التي نفترق فيها تجعلنا نعيد ما كنا قد تحادثنا به؛ لنغفو مساءً على موسيقى ظلالها، ونكتب دون أن يتلصّص أحد منا على الآخر، فتشتعل الأوراق حبرا، ونقف على منصّة

اللقاء المفترض أن يتم ونعبقه شجنا، كأن بيننا خيط وهمي في لحظات الابتعاد خارج دائرة الرؤيا يجمعنا دون خطوط حمراء لنصل مرحلة الالتحام، ونبذ كل ما يصبّ في وادي الافتراض بأننا لا نصلح أن نكون حبيبين، كانت في كل الأوقات بسيطة لدرجة تعقدني، وتعقدني أكثر عندما تبدأ بالحديث عن كيف يمكن للإنسان أن يعيش ببساطة؟ وفي كل مرّة كنا نزداد جنونا وحبا لبعضنا وفي بعضنا، بسبب- وهذا ما قالته:

إننا متأكدون أن لحظة فراق قادمة لم تحن بعد ولا نعرف موعدها.

قالت: صباح الخير.

لكنها هذه المرة قالتها وهبّت واقفة تريد المغادرة، عرفت ذلك من طريقتها في ارتشاف آخر ما تبقى من النسكافيه في الفنجان أمامها، فقد جرعته وهي تلملم

أغراضها، بتّ أعرف أن بذهابها يمكن أن تسحب معها الكون مخلفة وراءها سحابة من غبار الصّمت، وهذه الجملة تحديدا وفي هذا الوقت بالذات أستعيرها من قاموسها التعبيري، فقد قالتها لي في وقت سابق تعليقا على مغادرتي لها قبل حوالي شهرين.

أضافت: أتمنى أن تهيئ لنا الظروف لقاءً قريبا.

لم تترك ورائها سحابة من غبار الصّمت فحسب، بل نثرتني أيضا، وتركتني استجمع قواي من جديد، لا أعرف إن كان ذلك انتقاما منها على أخطائي، أم أن أسلوبها الجديد في الحياة دفعها إلى خلق أمور من الضروري -كما قالت- تجاوزها والبحث عن أمور يكون الصراع فيها خارج دائرة الصدام.

في كل الأحوال، كنت متفهما لهذه الطريقة، خصوصا منها، فكما هي بداية معرفتي بها والتي اتسمت بالفضول وحب الاستطلاع كان كل شيء يبشر لما نحن

فيه اليوم، فقد عرفتها من بعيد-بعيد جدا- ولم أتمكن من معرفتها عن قرب، كنت أود أن أحظى معها بمقابلة لأعرف مصدر ذاك الحزن الذي كان يخيم على زوايا عيونها المشتعلة بالفرح القادم من مناطق منزوعة الحدود، كان ذلك أيام الجامعة، كانت في كلّ حركاتها تسكن الغرابة، وأنّ بداخلها عواطف مبسترة تحتاج إلى كمّ هائل من التأمل؛ حتى تستطيع أن تذوب؛ ليتذوقها شخص آخر فيه نسبة عالية من الأرق والقلق -لم أكن أيامها أتوقع أنني هو- فقد كنت أعرفها بملامحها وطقوسها التي اعتدت عليها، وأن أراها فيها وفي شوارع هذه المدينة التي نحن فيها الآن نحترق، ففي كل مرّة كنت أصادفها، كانت تبدو مثل جالاتيا الحكيم مع فارق بسيط جدا حيث كانت تعيش في حالة من الفلتان الفكري والشرود المتوج دائما بالأمل والانتظار.

سابقا، لم يجرِ بيني وبينها أيّ حوار، رغم أنني كنت دائم الاستعداد لأن أحادثها وأعرف سبب قلقها وشرودها.

أذكر في أحد الأيام بأنّني كنت جالسا أحتسي القهوة، وإذا بها تجلس مع أحد الأصدقاء الذين أعرفهم، هنا شعرت أن الصدفة قلبت موازين المكان، فهيأت فرصة التحايل لمعرفتها عن قرب، بالفعل نهضت من مكاني وذهبت لأقتنص اللحظة؛ علّها تساهم وتدعم رغبتي الكامنة لمعرفتها، لكني وبعد مصافحتها ومصافحة الشخص الآخر- شعرت أن هناك خيطا غامضا يلفّ الحوار الدائر بينهما، فعدت لقهوتي بعد أن تذرعت بسبب لا أذكره الآن ولكنه كان سببا فضوليا مقنعا.

في السجن -والسنوات تسلخنا- كنت أتصفح الجريدة التي جاءت متأخرة عن موعدها عشرين يوما، يسطع عنوان على إحدى صفحاتها يقول بأن الجامعة منحتها الماجستير في التاريخ الإسلامي، وعنوان الرسالة «أثر الإسلام في ثقافة الأقليات-العصر الأموي».

قرأت المقال من النصف ثم انتقلت إلى ما بعد العنوان ثم الآخر، إلى أن قرأته كما يقرأه الناس العاديون،

كنت أبحث في السطور عن شيء يدعم صدق نبوءتي عنها، هي الآن ذهبت من أمامي على أن نلتقي كما اعتدنا، لسعتني الحرارة بين أصابعي، ففركتُ ما تبقى منها في المنفضة ونهضت ذاهباً للعمل، هي ليست أكثر نشاطاً مني رغم سفرها الكثير وأحيانا الطويل.

***

كان اليوم الذي يمضي يزيدني وعياً بالقضية، ويقرب اللقاء لعناق الدنيا من جديد، ويفتح أمامي سِفْر الثورة الطويل، بكل فصوله ومؤلفيه وقرائه أيضا، كنت قبلها بسنوات، أعرف الغلاف فقط، أما الآن، فأستطيع القول أنّني أعرف عدد السطور بل والحروف أيضا، وبأي نوع من الخطوط تمت كتابتها.

سنوات السجن ليست طويلة عند الذين يملكون وعيا وإدراكا بالواقع، فالحياة ليست أكثر من بحث دائم وأسلوب قابل للتغير والتكيف مع المحيط، بشرط المحافظة على قيمتها وإعطائها معنى يستحق أن نعيش فيها، حتى وإن أجبرنا على الجلوس على كرسي لا نرغبه أو نهواه، أو في مكان بعيد عن تقلبات الطقس وحركة الحياة المعتادة.

تستحضرني هنا جملة كنت قد قرأتها «بأن الكرسي خلق للاعتراف»، نعم، أوافقه حين بذلك الحديث قصد الكتاب، ولكنه كان الأجدر به أن يتذكر مزايا

أخرى لهذا النوع من الأثاث، حين يجد الإنسان وحتى الكتاب أنفسهم في لحظات تحدي من نوع آخر.

في السجن، وفي لحظة خارج الموعد مع إرسال الرسائل واللقاء المنتظر، تملَّكتني فكرة أن أكتب هذه الورقة، فنحن معتادون أن نبعث الرسائل فقط يوم الأحد، ولهذا كنت أرى كل من حولي يكتبونها السبت ليلا؛ لتكون متألقة مثل قطع من الجليد ، أما اليوم «الاثنين»، لهذا سأنتظر عدة أيام قبل أن أضعها في الظرف لإرسالها، وقبل أن أخبركم بالسبب الذي عصفني لكتابتها، اسمحوا لي أن أقول لكم أنني بخير وبصحة جيدة حتى تكملوا قراءة الرسالة باطمئنان، بل ويطيب لي أن أقول لكم إن عندي احتياطا من الذكريات ما يجعلني أواسي كل أسرى العالم. لم أكن أعرف من قبل أن مقدار الحب كبير في قلبي لدرجة أنني أحببت المكان رغم قساوته، وسأحافظ على هذه الميزة بالرغم من أن السجان يفعل الكثير من الأمور التي تدفعنا كي نكرهه، فالحب هو السلاح الذري

لمعنى أن تدافع عن حقك وحريتك كإنسان.

اليوم، الخامس من أيلول أي في الخامس والعشرين منه أو أكثر قليلا، ستكون هذه الرسالة قيد قراءتكم لها، بمعنى آخر، سيكون قد مرّ على اعتقالي عام كامل.

عام كامل!

تركت البلدة أو للدقة أجبرت على الابتعاد عنها، ليست وادعة وحالمة، وأشخاصها وسكانها كانت تتملّكهم الغرابة وعدم استيعابهم للأحداث، كانت كل يوم تستفيق على قلق وخوف اللحظة القادمة، على غير عادتها، وكان الشك يتربص بين أزقتها، والحقائق كانت مغيبة، والابتسامات التي كنت أراها على الشفاه مستعارة، وكأنها تلبس قناعا خاصا بحفلات الرقص حتى تجد ضالتها.

عام كامل وأنا أعيش لحظات البلدة الأخيرة، خوف الأسرة على بعضها ورحيل الأصدقاء إلى عوالم لم نرها إلا في الكتب المقدسة، والسؤال الدائم عن الأشخاص الذين يحوم حولهم الخطر، وسؤال الآخرين بخجل عن مشاريعهم في المستقبل، لم أرَ شروق الشمس أو غروبها إلا في الذاكرة والكتب والتلفاز.

هنا يوجد الكثيرون من الذين أمضوا أكثر من عشرين عاما، قال أحدهم أنه في فترة من هذه السنين: كنت أستغلّ أحد الشقوق داخل الحائط، كان شقّ واسع -واسعا جدا- وأنظر إلى الحياة، كانت مساحة الشق 2 سنتيمتر، وقلت له في مرة أخرى إن السجن يكشف لك الثورة من الداخل، من العمق ويضعها في قالبها الحقيقي، ويبين لك نجاحاتها وإخفاقاتها؛ فتعرف بالضبط أين كنت؟ وأين أنت الآن؟ وعلى أيّ أرض كنت تقف، فرد قائلاً بأسى وعدسات نظارته تزيد من حجم المأساة:

هذا إن كان هناك ثورة بالمعنى الصحيح لها.

إجابة فاجعة كواحدة وعشرين حديدة.

عام كامل... كم تغيرت البلدة! أصبحت شوارعها «سوداء»، والمسافر إلى مكان عمله بات له مكان مخصص على جانب الشارع يجلس فيه يحتمي من قيظ الشمس ولسع البرد لحين وصول السيارة- ترى، هل ما يزال السائق « منعم» يعمل على الخط؟

كم تغير سكانها أيضا وربما سياستهم ونظامهم وعرفهم الاجتماعي، كم تمنيت لو كانت الأمّ تعرف القراءة، لكنت كتبت لها شيئا تقرأه بنفسها، وكم تمنيت لو كان الوالد يحتفظ بقدرته على قراءة الخط، لكن لا بأس فأنا أمتلك من الثقة ما يؤهلني كي أجعلهم قادرين على قراءة ما لم أكتب من خلف الشبك والفاصل الزجاجي.

كم تمنيت لو شاركت في جنازة الشهيد ياسر عرفات، كنت في الزنازين وقتها، عرفت أنه استشهد من خلال الرايات السوداء التي شاهدتها على السيارات وأنا في الطريق من زنازين التحقيق الموجودة في القدس إلى المحكمة العسكرية في معسكر عوفر، كان يوم 11/11/2004، وكانت هذه المرة الأولى التي أقف فيها أمام قاض، والمضحك أنه طرف في القضية.

عندما كنت في الزنزانة، كان الحارس يفتح المربع الصغير وسط الباب الأسود؛ عندما كان ينظر إليّ، فمه وهو يبتسم كسحاب البنطلون.

وأنتم تقرؤون هذه الرسالة ستكون غزة، وربما جزء آخر من الوطن، قد تخلصت من كابوسها.

ما أقصر العام! ما أعظم الأحداث!

إنها للحظة مجمّدة تلك التي تركتها في ذاكرتي.

إنهم مقتنعون لدرجة اليقين أننا فلسطينيون، وأصحاب هذه الأرض أكثر من يقيننا نحن - يقينٌ يساوي يقينهم بأنهم ظالمون بحقنا بل حتى بحق أنفسهم.

***

السجان: كم حكمت؟

الأسير: أربعون شهرا.

السجان: فقط؟

الأسير: كم كنت تتوقع؟

السجان: عشرة مؤبدات، مدى الحياة.

الأسير: وماذا كان يجب أن أفعل حتى أستحق هذا الحكم؟

السجان: .....

***

في حلم رأيتها، فحين يطول البعد تكثر الأحلام بها كبديل مؤقت عن البصر الحقيقي وحضورها الوهّاج، أو أن الحلم كان «عربون» ثقة بأن الذي بيننا أصبح يفلت عن السيطرة ومن القدرة على التحكم المتقن بالنهاية، لدرجة اجتياح النوم واكتساح الكسل؛ ليتم اللقاء مرة أخرى؛ ويتجدد الوعد مع الموعد الذي لم نخطط له سلفا.

أشجار خضراء عالية الكثافة -عالية جدا-، جدا عالية، تحجب الشمس، وفي نفس الوقت كان المكان مشمسا ومعتما معا على شاطئ البحيرة، ساكن وهادئ بشكل مطبق، كان ماؤها وحافتها مرصوفة بلون البنفسج، كان الشاطئ واسعا، لكننا في مكان محدود، يحتوي بناية عالية تخلو من النوافذ والشرفات، وغير مأهولة، بالقرب منها توجد صخرة يقف عليها طائر غريب وبجانب الصخرة، بندقية مهترئة، ظهرت من خلف البناية من جهة البحيرة، وتقدمت ببطء يشبه الماء خلفها، وعينها لا تفارقني، كانت ترتدي ثوبا

حريريا طويلا بلون أصفر منقّشا بالنوايا الحسنة، قصرت أكمامه للمرفق، وشعرها المتماوج الأصفر الذي يتخلله خصلات سوداء يرتاح على الكتف، كانت تحفة بجمالها رغم أنني لم أرَ وجهها.

قالت: أنا حريتك.

قلت: .....

قالت: ألم تقل أن الحلم هو النافذة التي نطل منها على الحقيقة؟

قلت: .....

قالت: أنا الحقيقة الحرة.

قلت: ....

قالت: اقترب وانظر من النافذة.

قلت: .....

«خطفت منها قبلة بريئة وسريعة واختفت»

أسندت وجهي على الجانب الأيسر من الوسادة، لا أعرف ماذا كانت ترتدي هذه المرة؟ وبأيّة هيئة؟

ظهرت في قاعة مليئة بالزوار، ولوحات كلها تحمل نفس الرسم ولكن بأشكال مختلفة، كانت القاعة تخلو من أي صوت سوى من أصوات خفيفة تأتي من قاعة مجاورة، يتم فيها حفل زفاف لعروسين كنت أعرفهما فيا مضى منذ سنين.

قالت: أنظر إلى الرسام، ألا تلاحظ أنه يشبه لحظات الاعتقال؟

قلت: ....

سألت: كيف اعتقلوك؟

أجبت: وهل هذا مهم بعد هذه الفترة الطويلة؟ ثم أَلم أخبرك؟

قالت: بلى، ولكن لكثرة ما سمعت قصصا نسيت تفاصيل قصتك.

سألت: هل أنت مهيأة روائيا، فالحديث قد يطول؟

أجابتت: تفضل يا غرامشي « وغمزت بعينها».

قلت: أنت تربكين البداية، بأي عقل ترغبينها؟ بالوصفي الذي مهمته وضع الظواهر في لوحة، أم التحليلي الذي يضعها في شظايا، وإن سألت ما الفرق؟ هو أن تتحول من أسير إلى آسر.

قالت: إن ما تعتقد أنه البداية هو في حقيقته نهاية لأشياء سابقة، وما تعتبره نهاية هو في حقيقتة بداية لأشياء لاحقة.

إحك... قالتها بعد أن وضعت حقيبتها على الطاولة أقربَ إلى الحنق.

أيلول، في عشرينه بالضبط من العام الذي استشهد فيه ياسر عرفات، لم تكن شمس ذلك اليوم تبشر بشيء سوى سقوط الشهداء وأوراق الشجر، وعالم يحكمه المزاج المتربع على العرش في آخر الدنيا -وأنت تعرفين أن ذلك ليس غريبا علينا-على الأقل في سنوات عمرنا الحالي- أما مساؤه فقد خذلني، إذ أخطأ قمره وهواؤه في إرسال البريد أو حتى الطرد، وربما كان صحيحا ولكنه حمل العنوان الخطأ.

عدت من جولتي الليلية المعتاد فيها على التمشّي حتى في أصعب ظروف الطقس التباسا ووضوحا،

لم أكن أعرف النوم قبلها، تماما كما يعتاد طفل على الهدهدة، عدت في تمام الساعة بالضبط بعد أن كانت الحركة قد اختفت ولم يبق سوى أضواء أجراس البيوت وأصوات البوم على أعمدة الكهرباء، والقمر قد سقط على أغصان الزيتون تتخلله غيمتان انسيابيتان،

كان تكرار مثل هذه الأجواء يبعث على الهدوء، ويوحي بوجود سرّ ما، وأن وراء ذلك كله «مايسترو» يحركه فيضبط إيقاعه، الصوت الوحيد الذي كان ملازما هو صوت الحصى تحت الخطوات.

دخلتُ البيت

- العشاء جاهز، كم قلت لك لا تتأخر، ولكنك ما زلت مصرا أن تبقيني قلقة، أنت تعرف أنني غالبا لا أنام حتى تعود، فليس هناك ما يبعث على النوم وأنت مطمئن، الأوضاع كما هي، ونهار أمس زادوا حرارته بالرصاص.

- حسنا سأحاول أن أقوم بهذه التوجيهات وفي أقرب وقت.

- حاول أن تنام باكراً - تصبح على خير.

أخذت دوشا سريعا، حلقت ذقني، كويت ملابسي ووضعتها جانبا على مسند كرسي المكتبة لأقابلك بها.

- حلمت... الثالثة وخمس وخمسون دقيقة فجرا، على غير عادتهم، بهدوء، قلبوا البيت رأسا على عقب، بعد أن أخرجونا وتفحصونا كلا على حدة، كانوا ينتشرون كالأميبا حول البيت.

قالوا: نريدك.

أنا الآن أمامك، وهذه الثياب التي أرتديها، هي نفسها التي كويتها لأقابلك بها ليلة الاعتقال.

قالت: هناك كثير من التفاصيل لم تذكرها.

قلت: لك أن تتخيليها إن نسيتها، فهي مشابهة لقصص الاعتقال الأخرى.

قالت: كنت أحب أن أسمعها على طريقة الشظايا.

***

الانتظار على موعد دائم معنا، والزمن المبتور في العمل -أي عمل- ليس عيبا، إنه بالضبط يشبه إلى حد بعيد ذلك اللقاء المتقطع بيني وبينها، له خصوصيته وجماليته وأحيانا أخرى توتره واختلافه وائتلافه؛ لإقامة وتشييد نسق ونصّ يستحق المثول أمامه مثل شلال فوق الصخور.

أعرف أنه يصعب على اللغة أحيانا أن تتلقف ما يدور في الذهن في لحظة شرود حالمة، وأن أي نص مهما كان مطولا ومكثفا سيبقى بحاجة إلى نصوص أخرى لتوضيحه في سلسلة لا متناهية من الحاجة إليها، لكن ذلك ليس عيبا وإلا لما وجد الشعراء والأنبياء وربما اللصوص أيضا.

شقيقتها التي فضلت البقاء بدلا من السفر والدراسة في إحدى الجامعات المحلية، تملك من القدرات العقلية والذهنية ما يؤهلها لتأليف كتاب سماوي، وبررت ذلك بأن السفر لا بدّ قادم ولكن إلى حين ذلك

الموعد سأكتفي بالسفر المعنوي في السطور والقدرة الذهنية على استحضار المناطق البعيدة قبل السفر الحقيقي إليها، اعتقادا منها أن محيطها هو المفتاح لفهم العالم بطريقة لا أقول صحيحة، وإنما اقرب إلى الصواب دون رتوش أو اعوجاج.

في آخر مرة رأيتها، كانت نائمة بين ملاءات البياض في المشفى، ولم تكن قد استفاقت بعد من غيبوبة ألمت بها فجأة، فإصابة شخص بالزكام لا ينتهي بالوصول إلى هذه الحالة الخطيرة ليقع فريسة المواقف الصعبة بين الموت والحياة، ولكن الأطباء أكدوا أن صحتها في تحسن مستمر، بل ستكون أقوى من ذي قبل فور صحوتها من الحالة الراهنة، وعندما سألت عن آخر أخبارها قالت أنها ما زالت في المشفى، ولكنها ستخرج منه غدا صباحا في تمام الساعة التاسعة بالضبط.

أتصدِّق أنه عندما ذهبتُ لزيارتها اليوم قطفت لها ضمّة من زهور الحقل البرية التي تحبها، وحاولت أن

أرفق معها بطاقة إلا إنني لم أستطع أن أكتب عليها أي شيء، فكتبت اسمها فقط بالرغم من عشرات الأبحاث والدراسات التي كتبتها، وتضاهي قيمتها درجة بروفيسور؟ فقد فقدت القدرة على كتابة سطور قليلة تحتاج من البساطة -فقط- أن تدلق الماء في جوفك حين تشعر بالعطش.

لم أرغب أن أقول لها لماذا؟ لأنني كنت على قناعة أنها ستكتشف السبب لوحدها، فهي ليست أقل ذكاء من أن تستشفَّ حالتها الشخصية وتفسير نفسها باستمرار، سألتها إن كانت شقيقتها حدثتها عمّا ألمَّ بها؟ فقالت أنها كانت قد أصيبت بالزكام ووصفت لها الطبيبة دواء تتناوله لمدة أسبوع فقط وينتهي الأمر، على أن تأخذ يوميا حبة دواء بعد وجبة الغداء، إلا أنها وبعد ثلاثة أيام ملّت من تناوله، وبدلا من أن تلقيه من نافذة السيارة، جرعته دفعة واحدة حتى تشفى بسرعة -هكذا قالت- لأن أمامها مشاريع ضخمة تحتاج كل ثانية حتى تنجزها، وعندما حدثت الطبيبة

بهذا السبب لم تصدقها واعتبرتها محاولة انتحار فاشلة، عالم لا يصدق حتى أبسط الأمور، يريد منا أن نصدق ما يعتقده هو فقط، وكأنه لا يوجد أدمغة ذات فروق، كل على خطأ بقدر ما يلحق بالآخرين من ضرر، وكل شيء صحيح بقدر ما يحمل من خطأ، والذين يدعون صحة نظرياتهم وتجاربهم في إدارة أي شأن لم يلاحظوا فشلها عند شخص آخر، هكذا علمني التاريخ .

قلت: ألم يعلمك أيضا أن التمسك بالفكرة وحدها لا يعني استمرار الكيان؟

قالت: بل أكثر من ذلك، إن انتشار طريقة بشكل واسع لا يعني نجاحها أو صوابها، ولكنها تبقى أفضل الخيارات المطروحة، ولا نحكم عليها بكيفية التعامل معها وإنما بكيفية وعينا لها، ألا يكفي كوارث؟ ألا يكفي!

هل نحن بحاجة لكوارث جديدة حتى نتجنب ما نقتنع به الآن؟

قلت: يبدو أن دراستك للتاريخ وأبحاثك المستمرة أفقدتك صوابك، أو أنها كشفت لك المستور فوقعت أسيرة الانبهار.

قالت: إنني أشبِّه نفسي بذلك الذي يشعل الشمعة لا ليرى الأشياء، وإنما الأماكن التي لا تزال معتمة كما قال أدونيس.

قلت: يبدو أننا ما زلنا بحاجة إلى أساليب وأدوات جديدة للفهم في هذه الأيام، على أية حال سنكمل حديثنا في وقت لاحق في أجواء ألطف إن وجدت، أراك غدا صباحا في المشفى، فلدي عمل كثير ينتظرني.

***

خرج من الباب وترك وراءه السكون يسطو من النافذة، ذهب وتركني أغازل المساء بوحدتي بعيدا عن صراعات العصور السابقة، مع أن حالات الصراع أثبتت لي، ولي على الأقل، أنها كانت دافعا دائما للبحث عن الذات، تتحول إلى أفكار مستنيرة في مرحلة الهدوء فيما بعد، حتى في أقصرها وقتا كأنها لصوص فارّة من العدالة.

إلى متى سأبقى مسكونة بالكوارث؟ ألا يحق لهذا المساء أن أشاركه هدوءه حتى وإن كان مريبا، المهم أن أشاركه سرّه دون أن يصطدم نظري بالسور حول المنزل، ولا بالقمم النامية في أعالي النبات؟

سؤال بتُّ أعرف جوابه لحظة وصول الشرفة، وأفتح ستائرها وأرى عبارة «قدر الكريم العطاء وقدر النبلاء العذاب» ترقص على مدخل المنزل من بعيد بثياب قائلها -أنت أيها المساء- وذهبت أردد أغنية لماجدة الرومي دون ترتيب مقاطعها أغازله بها:

شو بحب إسهر كون قنديلك
تغفى بعينيِّ وغنيلك

،،،،،،،،،

بحر وضباب وحدّك، حدّك أنا

،،،،،،،،،

تشرق علّي بألف لون ولون

،،،،،،،،،

آخر طريق الليل.... أغمرني

إنها عادة جديدة بدأت بالظهور قبل التحاف الحلم، أن أملأ جو الغرفة زهورا وبؤسا، إنها صورة طبق الأصل عمّا قاله لي ذات يوم -هذا الذاهب دوما

وقبل قليل- أن الذين يكتبون أمام الّدم هم أشبه بالقراصنة، لكنني لست متفاجئة، فحالة التقارب في كل شيء بدأت في الألفية السابقة.

***

ذلك الرابط الضعيف أو الوهمي المتقافز بيننا أحيانا أو دائما -كما اتفقنا في لحظة ما- حين نصاب فيها بالتشتت، هو الذي يجعلنا أغلب الأوقات نعتقد أننا على ثقة في كل ما نقوم به، إنه أشبه بترجمة كتاب.

صباح الخير، وبعض غيوم في السماء، أكان ضروريا أن نرى طائرا ميتا على الأرض لنعرف أن البساتين جميلة، مع العلم أن فيها من السحر ما يجعلك بين عبيرها دون أن تدري ودون أن تقدم استئذانا بالدخول؟

قبل الاعتقال ببضعة شهور، كنت قد حاولت كتابة قصة يتم من خلالها أن يتعرف ويلتقي شاب بفتاة من أوروبا، على أن يتم ذلك بعد أن يخرج الشاب من فترة اعتقال دامت ثلاث سنوات.

في الأسبوع التالي من هذه المحاولة تعرفت عليها على أرض الواقع -كانت من النرويج- أثناء زيارتها لنا

كمتضامنة مع حقوقنا ومطالبنا وداعية سلام، كان لديها من القوة الكامنة في أعماقها ما يوحي بأن لا شيء هناك اسمه مستحيل، كأن يتم عقد اتفاق سلام مع إسرائيل، وهذا ما جعل قلبها ذا نبض أممي، وليس غريبا أن أتمنى الآن رؤيتها في الحقيقة بدل النظر للصورة التي التقطناها معا، بعد فترة قصيرة من لقائي بها وسفرها المفاجئ، تم اعتقالي وأمضيت ثلاث سنوات.

قصة غريبة لا أستطيع السيطرة على أبعادها كلّما رنّت في الذاكرة، تماما مثل كثير من الأحداث الغريبة التي حدثت أثناء لقاءاتنا في تلك الأيام.

انقطاع الكهرباء المفاجئ في تلك الليلة، جعلني أترك كل ما كان مفتتا ومنثورا فوق الطاولة وأذهب لأكملها عند أخي الذي يملك مواهب وميولات مسائية في الحديث، ثم أنني لم أزره منذ فترة، وكان آخرها يوم تكلمنا عن الذكريات أيام الانتفاضة الثانية والتي عرفت باسم «انتفاضة الأقصى».

في الطريق وفي الدقائق القليلة التي تسبق الوصول، أعادني الظلام الدامس إلى مشهد طفولي لم أتذكره من قبل، يوم عدت من المدرسة أحمل ورقة النتائج السنوية، حين قرأها أبي وشاهد نتائجها أعطاني مكافأة مالية -كنت في الصف الرابع- وبدل الذهاب لشراء ما يخطر على بال طفل، ذهبت لبيت قديم -قديم جداً- قرب منزلنا ومكثت فيه ساعات- لماذا؟

لا أعرف! لكني أذكره تماما من الخارج والداخل، حجارته الخارجية المقشرة وبابه الخشبي ذو اللونين الأسود والأخضر الباهتين وعلوّه القصير، كان يُخرج صفيرا عند فتحه بصعوبة،

داخله كان رطبا و باردا، وأرضيته تعلوها طبقة ضحلة من الروث، وزواياه تتدلى منها خيوط عناكب علق بها حشرات لم تؤكل، وجدرانه مشققة يعلوها لون من السواد بفعل ما أشعل من أسرجه وقودها الزيت، في مكان قليل الارتفاع يوجد حصيرة قشّ مهترئة من

أطرافها وأدوات لفلاحة الأرض في تنوع مواسمها، لم أع وجودها، لكنها الآن وبكل بساطة تدل على ارتباط الإنسان بالأرض، وتختصر حكاية وتاريخ الفلاح الطويل معها، كان هذا المكان يسمى «بيت أبو طالب».

بعد تناول وجبة عشاء خفيفة وسماع آخر نشرات الأخبار مدّ لي أخي ورقة وقال أنها رسالة كنت قد بعثتها من المعتقل، تناولتها وبدأت بقراءتها بصوت عال.

أخي
الكتابة لك -تحديدا- تأخذ أبعادا أخرى في حضرة الغياب، تتجاوز كلمات الشقيق للشقيق التي تلتزم بذاكرة طفل يلعب بالتراب معك، إنها تفوق هذه المعطيات كلها بدليل أن عمرك يزيد عن عمري زوجة وأبناء خمسة، الكتابة لك، يعني أن تحضر القضية برمتها على المساحة البيضاء -أبشرك بأنني من الجيل الذي سيحظى بشرف التحرير وصناعة

السلام- تحضر القضية وتفرض جلالها الذي استمدته من الذين صعدوا الى السماء ومن الجرحى ومن الجميع ممن حولي، إنها تعيدني إلى مفهوم كلمة أخ بالمعنى الحركي، والعمل المتواصل للنجاح - أي نجاح - مهما كان - المهم أنه كان يعني لي الكثير، ففي النهاية كنا نكتشف أننا نصنع تاريخا صافيا وناصعا، لم يكن ذلك ليكون لولا إدراكنا مبكراً لمعنى أن تكون فلسطينيا تحت الاحتلال، أما النتائج فهي واضحة بدليل أنني هنا وأنت هناك، لكن أنت تعرف أن من لم يرفض شيئا سيئا لا يستحق الحياة، فما بالك بالاحتلال؟

مهما كانت النتائج فإنها تكفيني أن أكون أحد هؤلاء الرافضين، ولك نصيب كبير في تشكيلي لأكون كذلك وأنت تعرف.

أخي
أكتب والتخطيط المسبق في الكتابة لك لم يكن موجودا

كما هي علاقتي بالقلم دوما، حيث أجد لخصوصيتي وقتا نادرا للتأمل بإتقان من يفكر في أرشفة وتحنيط اللحظة؛ لتدوم ما دام النبض حليفنا، وهذا ما جعلني أعقد وبشكل دائم اتفاقات مع المفاجأة؛ لتقيني من الصدمات؛ أعذرني على هذه اللغة وهذه الطريقة في الكتابة، فحقا أنني فقدت السيطرة على كتابة الحروف بطريقة عادية، وهذا الشيء كنت أتوقعه منذ أن شرحت لي كيف تصاغ البيانات - كان ذلك في الانتفاضة الأولى، ومنذ ذلك الحين وشبح أن أكون مسكونا بقضية كبرى يطاردني، لم أكن أعرف أنني سأكون مقاما لقضايا عديدة بعدها، وأخرج بفلسفة خاصة بالسطور وبالحياة، أنت لا تعلم وربما تستغرب لو قلت لك أنك من الذين أرشدوني إليها بطريقة تستفز مخيلتي للبحث.

سجن بئر السبع 2006

قال: أنت تذكرني بتلك الأجواء التي كانت سائدة حيث كل قائد تنظيمي أو حزب يعتقد أنه في الخط الصحيح، ويعمل به بشكل احتكاري نافيا رغبات الآخرين، ويصرح أنه متفهم «للخطأ» الذي يقومون به من باب «اجعل صدرك واسعا للجميع» وكانت حالة الجهل أو عدم القدرة على التقييم هي التي جعلت الناس يصدقونهم، فلم يكونوا قارئين حقيقيين لبرامجهم بقدر ما كانوا مبهورين لعدد الرصاص الذي تملكه كتائبهم، أكانوا بحاجة إلى تلك الفلسفة الزائفة حتى يتقبلوا بعضهم كما هم الآن؟

قلت: أتقصد أنهم كانوا يتبعون التنظيم الذي يضرب أكبر عدد ممكن من الرصاص دون الالتفات لبرامجهم المطروحة في إدارة دفة الأمور؟

قال: نعم، ولو أتيح لتلك الانتفاضة أن تستمر، أنا على يقين بأننا كنا سنشهد ظهور تنظيمات لم نسمع بها من قبل لتكون بديلة عن ما كان أو ما هو موجود اليوم.

قلت: ماذا تقصد ب «لو أتيح»؟

قال: إذا كنت مهتما بمعنى هذه الكلمة فارجع إلى الدراسات المنشورة حول تلك الحقبة وستجد ما أقصد.

كان جوابه لهذا السؤال ناعسا كظهيرة الأيام الأولى من آب، ضغطت على زرّ ضوء الساعة فوجدتها بالضبط، غادرته مستأذنا بعد أن تذكرت أن عمله الجديد يتطلب نشاطا إضافياً لإنجاز بعض الأمور المتعلقة بالإدارة والترتيب، على أن أعاوده في أقرب فرصة يمنحها الوقت لي.

في طريق العودة، اختفى ضوء الطبيعة في الأضواء التي نسلت من كل مكان، وظهر رجل طويل عليه ملامح بدانة، يخلو رأسه من الشعر إلا من الذوائب؛ ليلتفّ ويلتقي في أقصى القفا، وكتفاه متأرجحتان للأمام تحملان زندين رخوين، ويسير بخطى وئيدة،

تشعرك أن العالم اقترب على النهاية، حين وصولي، قمت بتجميع ما كان مفتتا على الطاولة لأبقى في حالة كتابة حتى اقتراب الضحى لما أثارته تلك الليلة في نفسي لما كان مختبئا منذ زمن.

***

كانت مصافحتي لها محض لقاء، وكانت تبدو كما قال الأطباء بعد شفائها-أكثر نشاطا وحيوية من ذي قبل، لكن أن تبدو بهذا الشكل الملفت بعد أسبوع واحد من خروجها من المشفى فيحتاج إلى تفسير.

كان العمل حسب مفهومها حالة طرد بعكسي الذي كنت أعتبره حالة استحضار، لهذا كان نشاطها الزائد يمثل عندي نقطة غير محبذة، رغم أنها تدفعك في كل ما تقوم به كي تتحمل عبء ما لم تسطع عليه صبرا.

في أوقات العمل الدراسي المضغوط، كانت بمفردها تمثل طاقم من فريق عمل يبحث عن كنوز في منطقة أثرية موجودة في الصحراء، لكنها بالمقابل تحافظ على مظهرها كمذيعة أخبار، وهذا ما كاد يطيرّ عقلي.

في الفترة الأخيرة، بدأت أمر في حالة توجّس مع نفسي أن أقع أسيرا لعلاقة انجذاب نحوها، فلم أعد أطيق رؤيتها، ولهذا أحببتها، فهي من النوع الذي يحبك فقط عندما تحب غيرها.

كلما تذكرت أختها -تلك الغائبة الآن- واستغل لحظات المقارنة بينهما كنت أخرج بنتيجة أن التي أنجبهن لم تكن أمّا، وإنما دينمو طاقته الهواء والعواصف، والأب زلزال يعمل بقوة السماء.

الغريب منها في هذه اللحظة، أنها طلبت أن نجلس في مكان ما، وتركت لي حرية اختياره على أن يكون الأقرب من الأماكن التي أعرفها، فلديها بعض الأمور التي ترغب الاستشارة فيها تتعلق بدراستها -هكذا قالت- خصوصاً في المجال الذي تنوي التخصص فيه.

كنت أعرف أنها تستطيع تحقيق الامتياز في جميع التخصصات، كان هذا بعد أن أسهبت في الحديث ذات يوم عن الدراسة في مجال الهندسة النووية، والتي استعانت بالانترنت في استخراج بعض الملاحظات عنها، لكن وبعد أن أخذت قرارا بالبقاء والدراسة في إحدى الجامعات المحلية، رأت في دراسة الكيمياء أو البيولوجيا ما يمكن من خلاله أن نحقق

شيئا، فلديها تصور أن مستقبلنا يتأسس بدراسة العلوم التطبيقية بعد أن فاضت علينا السماء والأرض بالجوانب الأخرى.

ما الذي تقصده هذه «الماكينة» بالتوجه لاستشارتي والتي تعرف مسبقا أن جميع اهتماماتي مصبوبة في الجوانب الأدبية وأشقائها وبنات أخواتها، والتي كانت تمنحها وقتاً أقل بكثير عن شكل الغدة الدرقية؟

كانت عادتها أن تحول الأفكار إلى مواد ملموسة أو المواد إلى أشياء دقيقة، تنذر بوجود نتائج ستظهر في القريب، لهذا أصبت بالريبة من إقدامها على هذه الخطوة، وهذا الطلب في اللقاء المنفرد بعد أن كانت تحادثني في اللقاءات السريعة بعبارات تقتصر غالبا حول السؤال عن الأحوال ثم تغادر على الفور، ذكرتني بالطريقة التي تعرفت بها على أختها حيث الفضول وحب الاستطلاع للوقوع أخيرا في حب أنثى من نوع غريب، لا أستطيع الخلاص منه ليكون أحد الدوافع عندي للحياة – كما قالت.

قلت لها -من وجهة نظري- وأعتقد أنك ستلاحظين يوما ما - أن لا شيء يمكن التقليل من شأنه إن كنا فعلا نريد تأسيس مستقبل يكون كما تخططين وتتصورين، وأحد الشروط هو أن يكون هناك توافق بينهما بشكل متوازٍ، حتى نتجنب الانفصام الحضاري، بل ان العلوم النظرية والأدبية تسبق العلوم التطبيقية في بعض الأوقات، حتى أن أشهر المبدعين في مجالات الفكر والفلسفة والأدب كان لديهم رغبات في المجال الذي يستهويك اليوم، أو أنهم كانوا قد درسوها بالفعل ليؤسسوا لعالم التطبيق فيما بعد.

أنت، تقضي جلّ وقتك في الكتابة، لماذا؟ وهناك عشرات الملايين من الكتب والمؤلفين وأخصُّ الكتب، وكلها تدور في فلك واحد؟

بدون أن أدخل في العميق الذي قد يصل إلى العقم خصوصاً معها، قلت ببساطة، احتراما للسماء، فإذا كانت الكتب السماوية تحث على القراءة بمعناها

العام، فهذا يعني أن يحتاج الإنسان لشيء مكتوب قبل القراءة، وحتى يستمر فعل القراءة يجب أن يستمر فعل الكتابة في سلسة لا تنفصل.

قالت والفناجين توحي بالمغادرة.

حسنٌ، لي حرية الاختيار فيما أشرتك به، لكنني أريد التعليق على ما قلته، وأعتقد أنك تقصد أن الكتابة كفعل سابق للقراءة، وهذا يدل من خلال حديثك أن القراءة أرقى كوظيفة والكتابة أرقى كقيمة.

قلت: لهذا نجد أن الدعوات كلها تتجه للاهتمام بالقراءة أولا.

لم تكن قدرتها على الرد لهذه الفكرة غريبا بقدر ما كان اللقاء بها، الشيء الوحيد المختلف عن -أختها الغائبة الآن- أن غرابتها كانت متوقعة، أما تلك فغرابتها مألوفة، وشتان ما بين التوقع والمألوف،

المتوقع سيأتي والمألوف لصيق بنا، يكون أحيانا متماهيا فينا، لكن عيشي للحظات القادمة هو الذي بدأ يغريني أن أختصر الزمان والمكان، وأعتبر أن كل ما سيحدث مع هذه «الماكينة « كان قد حصل كاتفاق تم تأجيل التوقيع عليه.

لهذا ولَّد عندي اللقاء أن كل ما جرى من حديث لم يكن مهما، بل وأستطيع القول أنه تافه وسطحي ومبعثر، ويستطيع أي شخص أن يتناوله بطريقة أفضل، ويستخرج من التفكير به ما يجعل أن يضع يده على الجرح كما يقال، أو تحويله إلى مساره الصحيح فيما لو تناوله بطريقة التفكير النقدي الذي يجمع شمولية علاقاته، شيء واحد هو الذي بدأ يظهر ويتضح، أنني سأتورط! خصوصا أنها ألمحت قبل المغادرة أن هناك لقاءات تنتظرنا.

كلما سألت نفسي لماذا؟ أجيب، لا أعرف، فترد: ألست الذي تتوقع كل شيء؟

نعم، أتوقع كل شيء لكن وقته هو الذي لا يزال يشوش على تفاصيله، شيء واحد هو الذي زعزعني، أنني بدأت أشك في قدرتي على الانتباه.

مراجعة سريعة -سريعة جدا- لتلك اللقاءات ذات الوقت الأقل والخاطف مع تلك الذاهبة الآن، استحضرت فيها كل ما كان يرافق حديثها من تعابير ترتسم على حركات وجودها الخارجي، طريقة النظر ورفة الأهداب، هز الكتف، ميلات رأسها الخفيفة، وغيرها، كأنه يقول: انتبه! أمامك فتاة على وشك...

بالمقابل، كنت أفسر هذه الأمور على أنها من صفاتها الخاصة ذات الطابع النشط والعقل المشغول وأن هناك أموراً تنتظر الانجاز.

لماذا التفكير بهذا الموضوع الآن، ألم تمنحني السنون القدرة على قراءة الحدث منذ الملاحظة الأولى، إذن لماذا الشك في الانتباه؟ وأنا أعرف أنني يقظ لكل

حدث بسيط، وأعطيه قدره الذي يمكن من خلاله الخروج بنتيجة ما، تمكننا من الفهم لما ستؤول إليه الأمور فيما بعد.

لماذا بدأت استحضر كل ما قالته وما كان يمكنٍ أن تقوله، وذلك المشهد بالذات يوم التقيتهما معاً في منتصف الشارع الرئيسي؟

قلت للتي كانت غائبة قبل قليل أن هذه المدينة لا تكف عن التظاهر حتى لأتفه الأسباب، يبدو أنها أصبحت عادة مستعصية، وأتمنى الآن أن تزخ السماء ليفترقوا، هي من أجابتني وردت على هذه الأمنية قائلة:

أنسيت أننا في الصيف؟ تمنَّ شيئا آخر نصدق وقوعه، ويكون غير مناف لقوانين الطبيعة الأزلية، كأن يتظاهر الناس عبر شاشة عرض يتم تركيبها وسط تلك الساحة عن طريق أقراص CDs مسجلة لكافة أنواع التظاهرات، ويستمرون بعرضها حتى

تلبى مطالبهم، ونكون بذلك قد حققنا المحافظة على سلامة المدينة والوقت وهدف التظاهر.

ما هذا؟ ماذا في ردها هذا من ملامح كي أفسره على أنه لغم يمكن في أيّة لحظة أن ينفجر تحت قدمي، أو أن أتورط؟

إصحى

إنها تريد استشارتك فقط، لا أكثر ولا أقل ولا حتى نصف، هذه هي الحقيقة... الحقيقة... الحقيقة التي يمكن إنكارها أفضل من الشك الذي يقود إليها، لهذا أنا في حالة توجس، مع هذه بالذات ومنذ الآن.

أحيانا أشعر بأن شيئا كبيرا يسكننا، لأن أفكارنا أكبر من طموحنا، وأحيانا أصاب بالضجر حين أصل إلى قناعة أن العاطفة يرافقها الحرمان دائما أو غالبا.

كم وددت أن أكون مثل كلمة الله يصدقها الكثيرون حبا وخشية، أو أن أكون مثل لوحة في ممر، فاللوحة هي المكان الوحيد الذي نستطيع فيه أن نرى وبسلام صورة الوحش والإله، والممر يوحي بعدم التصديق، فسرعان ما نتجاوز هذا النقيض كنسمة صيف أو كما قال جيفارا: أنا واقعي أريد المستحيل.

سنقول أشياء مهمة في حياتنا بعد أن نكتشف أن العمر أمامنا لا يسمح لنا أن نكون كما أردنا، بعد أن نكون قد حملنا حقائبنا المدججة بالرحيل، وعلى كتف كل منا معطف أخذه احترازا، فربما نغفو على أرض ليست لنا، ولن يقول أحدهم «تفضل».

الحقائب إشارة للرحيل والمعاطف تؤكد طول الغياب والمكوث البعيد.

في حلم، مرة أخرى، رأيتها، لا أعرف كيف أو من أين جاءت؟ لا وقت لطلتها في الحلم وهي فقط من تأخذ

هيئة نفسها كما تشاء.

سألت: ما هو أكره شيء تحبينه؟

أجابت: جلي دلال القهوة في الصباح.

لو وجه لي هذا السؤال وأنا بكامل وعيي أو لا وعيي، كنت سأقف صامتا شاخص العينين لذهولي أمام هذا النوع من الأسئلة، ولعدم قدرتي على امتلاك الإجابة، وحتى لو أجبت فلن يطفح جوابي بالهال كجوابها.

أضافت: والمرأة التي لا تتقن طهي القهوة جديرة بالطلاق.

أكنت في حلمي أضيف على حقيقتها بعض ما أهملته في عملها الدؤوب والمتواصل في كتابة الأبحاث لأزداد بها شغفا.

هي امرأة الحدث المتنامي والمتشعب، يوم لا حدود إلا لها، وهي امرأة الحكمة والنتيجة التي تُخرس كافة التآويل، هي التي قالت لي ذات يوم أنها تستغرب من هؤلاء الذين يشربون الحياة ولا تتولد لديهم رغبة في عناق القلم، كانت تعرف جيدا أني لا أطيق علامات التعجب، وأن أكثر ما يستفزني هو أن تكون شاهدا على حدث أجبرت أن تراه صدفة، فتتحول إلى طرف رئيسي فيه رغما عن عقلك المجنون وعاطفتك الدافئة وحضورك العابر.

هي لا سواها التي اختارت التاريخ للدراسة؛ لتفهم نفسها أوّلاً قبل أن تضع نظريات على «واقع الأمة» في الوقت الحاضر؛ لتنسل منه ما سيحدث بعد قليل.

لم تذكر لي البداية، ولم تصفها حين رأتني لتدمغني بعينها المبرقة، وتلاحقني بعد أن دقّت أصابعها على الطاولة وتقول:

هذا هو ،،،،،،، هذا هو!

عاشق ضال وكافر بالممكن ومؤمن بالمستحيل.

ألم يقل سقراط أن المستحيل الممكن خير من الممكن المستحيل.

هذا هو، ليبدأ الموعد الأول وكأنها تعرفني منذ بدء الخلق.

باتت رؤيتها بعد كل حلم حدثا عاديا، وكنت أعدّ نفسي للقاء القريب، مع الغروب -مساء-

من منكما الأفضل يا ترى، أنت الحلم أم أنت التي أحادثك الآن؟

مهما يكن هذا السؤال فإنه يحمل إجابته، إلا أن الحلم بها ما زال مرشدي وملهمي الوحيد على الوعي الشامل والصحيح لكل ما أقوم به وأخطط له.

قالت: بدأت بالخوف عليك، هكذا، فجأة، صباح اليوم، بعد أن ظل الحلم الذي رأيتك فيه يطاردني، ويمحو كل شيء أرغب التفكير فيه، ليس فيه أيّ ملمس لهذه النتيجة التي أضعها أمامك الآن، لكن احتلالا من نوع آخر استوطنني لأبقي على هذا التفسير.

قرب غابة رأيتك، لست أنت، ولكنك أنت في نفس الوقت، تمر من أمامك الزوابع وجدول ماء وعيون تلمع بين الأشجار -عيون ذئاب في هيئة بشر- وخيول تقفز عنك وأنت مازلت واقفا لم تتحرك، وحولك أناس كثيرون يصرخون وهم في حركة ذهاب وإياب وتشابك في جميع الاتجاهات، وأنا في الهواء، كانت قوة دفع خفّية تبقيني في مكان ما فوق هذا المشهد، وأنادي باسمك بأقصى ما استطاعت حنجرتي، وأمدّ لك يدي قائلا:

التقطها، التقطها، وكانت أل «ها» في أخر الكلمة ترتد صدى من كل مكان سحيق، ومن كل قمة لا نستطيع الوصول إليها.

بصعوبة سمعت ندائي، وحين نظرت إليّ لم أرك، وبقيت يدك معلقة في الهواء في متناول يدي، وإلى الآن لم أستيقظ، وأضافت بلهجة التعبير عن شيء دائم الوقوع بلغة رقيقة:

ما بك؟

قلت وأنا ما زلت في نومها:
بي ما بك.

قالت: سأخبرك دون أسف أنني مسافرة قريبا تلبية لدعوة وصلتني من «جامعة الشرق» لحضور مؤتمر، وأعذرني أن أخبرك عن سفري بهذه الطريقة.

قلت وابتسامة خفيفة تعلقت بشفتي:
لا تخافي عليّ وتخلصي وبسرعة من هذا الخوف، وكوني كما أنت، وكما أعرفك في كل مكان، فالشمس والرياح والمطر هي هي أينما ذهبت وكيفما جلست لتشعلي حتى الحريق.

***

تعديل

الغياب على موعد دائم معنا

تعديل آخر

الإزاحة والحلول حالة مستمرة

هي وحدها من كان يعطي للغياب طراوته وشوقه المزخرف بأن شيئا ما سيحدث.

ذات يوم وبعد رجوعها من إحدى الدول قالت:
الأغبياء وحدهم من يتهمون الآخرين -العقلاء- بإلصاق صفة الفلسفة بهم؛ طبعا «يتهمونهم» و «من باب التوبيخ».

كانت مدهشة ومندهشة حتى الجنون لتقول مثل هذا الكلام وهي تسير وسط هذه المدينة التي نحن

فيها الآن، كانت مصابة بانكسار خفيف حين سمعت أحد المستمعين من الذين ملّوا الجلوس على الطريق، وجاءوا للاستماع في محاولة للتخلص من زهقهم، وسمعته يقول باستهتار «فيلسوفه زمانها».

سافري سيدتي وعودي بحقيبة ملأى بالجنون وباللعنة وبالثقة واستقبليني نقيضا متحولا، وافتحي حقيبتك أمام انتظاري وأمام أنظار كل سكان هذه المدينة.

شيء واحد فقط خفضّي من وزنه، الشك، فقليل منه يكفي، واتركيه عبارة واكتبيها على ظاهر الحقيبة -إن التشكيك في حزن صاحب أيّ قلم هو إهانة، ليس للكاتب فحسب بل وللتاريخ الذي درسته وإلى الآن لم يستدرجك.

قالت: سأقوم في المؤتمر بتقديم محاضرة بعنوان «مقارنة بين فهم ماركس وتوينبي للتاريخ من منظور إسلامي معاصر».

قلت: تذكري أن التاريخ يتبع نفس المنطق ولكن بنهج مختلف.

قالت: التاريخ تمثال موجود في حديقة عامة.

قلت: إنك لم تسافري بعد وجملتك هذه أشبه بنصوص عودتك.

قالت: يبدو أنك استيقظت من الحلم.

قلت: يبدو أنك ستصابين بحالة عودة دائمة حتى وأنت في طائرة السفر.

قالت: أنا مصابة بهذه الحالة منذ وقت طويل -طويل جداً- حين كان السؤال جسدا يبحث عن مكان استقرار؛ لتنطلق الفكرة وتصنع ذاتها، لهذا اخترت التاريخ طريقا للدراسة؛ طريقا للرجوع المستمر، والعودة الدائمة التي تتكلم عنها، ليس فقط في

الطائرة بل في كل ما يمكنه أن يقطع ويجتاز الأرض في جميع حقبها، فتحول إلى تمثال غير مكترث للنظرات الخارقة للعابرين وللمارة من الذين فقدوا وسيلة للاكتشاف فذهبت أبحث عنهم، وأضافت بجملة ليس لها رابط بما قالته عند الذين قرأوا ما كتَبَت:

أنا أصلح أن أموت كبحّار.

ثم تابعت قائلة: عندما يمكن لما يدور في الذهن أن يتحيز، فاعلم أن الموت أمامك، لهذا لم يكن مصادفة أن أبقى على محاولة دائمة ومستمرة في صناعة وصياغة هذا الحضور الملح للإرادة، لقد أدركت ولو متأخرة أن فكرة أن نموت حتى تعيش الأجيال اللاحقة، لا يمكن أن يقبلها حسّ أو عقل أو منطق، فالأجيال التي ستأتي ستعيش أفضل لو حافظنا على حياتنا نحن وغرسنا فيها بذور المسؤولية، لتكون بنية تحتية لهم، وستكون أمامهم بعد ذلك فرصة التطوير بعيداً عن بداياتنا المؤلمة.

قلت: بدأت ألاحظ أن هناك علاقة معقدة مع كل الأشياء المرغوبة لديك توازي بتشعباتها تلك الأمور المهملة والتي لم تصطدمي بها بعد.

قالت: إنها تشبه محاولة أن ترى وجهك من الجانب الخلفي للمرآة، لهذا اخترت التاريخ للدراسة، لا لأغيره أو أقوم بتعديله فذلك مستحيل، وإنما لأعمل على تطويره وخلق مناخ ملائم لاتخاذ القرار الأصح، ولأرى نفسي على طريقتي.

قلت: بالرغم من اهتمام الأمويين بالجانب الفكري والمعرفي إلا أن طريقتهم في إدارة الجانب السياسي والاقتصادي كانت مبنية على أسس قبلية.

قالت: هكذا كان شعبهم، والشعب هو الدستور الشفهي للدولة، أشكرك على هذا النقد.

قلت: يبدو أن حديثنا في هذه اللحظة أصبح مزاجيا، أتمنى لك سفرا موفقا وعودة دائمة.

قالت: ليست المزاجية عادة سيئة بالقدر الذي تتوهم، وإنما في أغلب الأوقات استجابات نفسية متأخرة للحدث أو للذي حدث، لقاء قريب.

قلت: بدأت أملّ من الكتابة وأفكر في اعتزالها.

قالت: إذا كانت قريش قد عزلت المسلمين في بدايات الدعوة، فان المسلمين اليوم هم الذين عزلوا أنفسهم عن قريش، لقاء قريب مرة أخرى.

سافري سيدتي ورتبي هذا العالم وكوني زنوبيا العصر الجديد، وابني مملكة تليق بالرجوع والعودة القادمة، لا تخشِ الأحلام كثيراً فجلها يأخذ وقتاً كي نتعثر بحقيقتها في الطريق، لا تخبريني بغيابك في المرة القادمة لأزداد ولعاً بالبحث.

***

القاضي: هل تريد أن تقول شيئاً قبل إصدار الحكم؟

الأسير: أنا أتحدث عن العدالة.

انـتـهـت

سجن بئر السبع المركزي
2007

هذه السردية:

بدأتُ بكتابة هذه السردية في معتقل بئر السبع المركزي مع نهاية العام 2006، وكان في ذهني أن تطول أكثر ويتم العمل عليها بتأني أكثر أيضاً، لكن قرار قوات الاحتلال بنقلي إلى معتقل النقب الصحراوي، عطّل هذا التصور الذي بدأته، إذ تم مصادرة مجموعة من الأوراق التي كانت مرفقة مع هذا العمل، وبعد أشهر قليلة، وتحديداً في الأول من آب من العام 2007، تم الإفراج عني، وبقي هذا العمل كما هو منذ ذلك التاريخ دون تعديل أو إضافة، وتعمّدت أن أنشره كما هو طازجاً باللحظة التي خرج منها وكُتب فيها.

المؤلف

20-9-2014